حكاية المساق الذي مسح غبار الزمن

ناصر شاكر اطميزي

لقد قبلت الدعوة، وفي مخيلتي أنني ذاهب إلى مساق هو اجترار مبتذل لما هو سائد، ومع معلم أقل من عادي، كل هذه الأفكار راودتني قبل أن تأتي لحظة البدء التي أضاءت لونها الأصفر منذرة بالدخول في المساق.

بدا المشرف بشرحه متخذاً من الأمثلة الواقعية رافعة لحديثه، وبعدها تسلق حائط النفس الإنسانية وما يعتريها من مكبوتات احتكرها العقل الباطني في ثنايا صفحاته المعتمة، مشدداً على ضرورة فضح تلك المكبوتات الساكنة في أعماق النفس البشرية، ثم أمطرناه بوابل من الأسئلة على صعيد مهنته وشخصيته، فأجاب الأسئلة دون حرج وبلا رهبة تذكر؛ لدرجة أن يوصف بأن الصراحة قد أكلت على ظهره وشربت، بل أقامت حقبة في فؤاده فتمكنت. ولعل هذه المصارحة قد عادت بي إلى الخلف – فلاش باك – لأتذكر ما كان يعرض على شاشات التلفزة من مصارحات شخصية وصراعات نفسية بين الشخص وذاته.

استمر الأمر على هذا الحال، تتقاذفنا أمواج الذات، إلى أن جاءت الاستراحة فخرجنا نحتسي القهوة، وأثناء هذه اللحظات تبادلنا الآراء، وتناقشنا فيما جرى في السويعات الأولى من المساق، غير أن نتيجة النقاش قد طغت عليها الناحية السلبية، أما عدم الرضا والاستياء الشديد، فكانا يرصعان موقفنا من المساق، لدرجة أن أحد زملائي في الدراسات العليا (الماجستير) قد عزم على الانسحاب من المساق، أضف إلى ذلك اعتراف مشرف المساق بعدم مقدرته على النفاذ إلى أعماقنا التي أقفلتها العادات والتقاليد المتوارثة، واعتقد أن خصوصية المنطقة الجغرافية المتمثلة في الخليل، المميزة بالمحافظة النسبية عن باقي مدن فلسطين، تأبى الانجرار خلف تلك النشاطات المرحة الصريحة؛ لإيمانها الشديد بهزليتها من ناحية، ولمخالفتها لكلاسيكية العقلية الخليلية الحازمة الجادة حتى في مشاهد الدعابة من ناحية أخرى. أعتقد أن كل هذه العوامل كانت تدق طبول فشل المساق في سويعاته الأولى.

بعد الاستراحة عدنا ونحن نرقب بصيص أمل في استيعاب المساق، وبالفعل تحولت شمعة أملنا لشعلة تغذيها ثلة من النشاطات المتنوعة، المتناغمة مع مكبوتاتنا الداخلية، وأعتقد أن الجرأة لم تقف مكتوفة الأيدي إزاء رهبتنا وتخوفنا من ممارسة ما هو جديد، بل تحركت لإنقاذ الموقف بما تيسر لها من شفافية مظلمة مشوهة.

إذا عثر أستاذنا على إبرته المنشودة في كومة غموض واستهجان عام بدا ينسحب منهزماً من أعماقنا تحت ضغط ضربات الجرأة، ولكن هل تستطيع هذه النشاطات في سويعاتها القليلة أن تهدم ما بنته التقاليد في ربع قرن وما يزيد على أدنى تقدير؟

انتهى اليوم الأول من المساق بنهاية سادها الأسف على المساق، بل ولأن المساق أصبح في عرفنا أعجز من أن يرتقي لتلبية الحد الأدنى من طموحاتنا المتواضعة، كل هذا وكلنا أمل في أن يحقق اليوم الثاني إخفاق اليوم الأول.

جاء صباح اليوم الثاني وقد فترت عواطفنا اتجاه المساق، فدخلنا القاعة لنجد فيها أستاذنا مرحباً مبتسماً، بعدها دخلت خلية مساقنا– فريق العمل– وقد شرعوا بالتصوير، وبما كلفوا به، على خير وجه، كخلية دؤوبة في عملها ولكنها بشكل بشري.

ابتدأ المساق في يومه الثاني بأنشطة جديدة متنوعة، قمنا بممارستها بكل جوارحنا على عكس اليوم الأول، ولكن يا ترى ما السبب وما الفرق بين يومنا الأول ويومنا الثاني؟

أعتقد أن الجرأة في القيام بمثل هذه الأنشطة، كانت تحاول جاهدة أن تتحرر من أغلال عاداتها وتقاليدها، فما استطاعت كسر حاجز الخجل، وما استطاعت له نقباً، ولكن اليوم الثاني أبى إلا أن يروض هذه الجرأة، وأن يخطو بها خطوات بعيدة ما أقيمت لها من قبل، وأعتقد أن أستاذنا قد نجح في استفزاز ذلك الرّوتين الذي ما عهدنا غيره ليتحطم على صخرة صمّاء نمت فيها بذرة روتين متغير –أصلها ثابت وفرعها بلغ عنان السماء– فشتان بين يومنا الثاني ويومنا الأول، فالأول سكون وجمود لا روح فيه، أما الثاني فكان يتدفق حركة وحيوية منقطعة النظير تنذر بروح أخاذة وسط حياة مفعمة.

أما اليومان الثالث والرابع، فكانا أفضل من اليوم الثاني على الرغم من إنجازات اليوم الثاني، الذي أجبر سفننا على أن ترسو على شواطئه في ولادة عسيرة جديدة في نوعها وكيفيتها، أتاحت لنا فك عقدة أرجلنا المعقوفة، وعقدة ألسنتنا لتطلق العنان لها لتصل إلى مبتغاها بكل يمن ويسر، وبكل عزم وثقة.

وهكذا يأتي عصر يوم الثلاثاء –وهو اليوم الرابع والأخير من المساق– ليعلن نهاية المساق لهذا العام، عندها عدت إلى الخلف أتصفح إخفاقات المساق وإنجازاته، لأجد أن الإخفاق قد ولى هارباً أمام حصن إنجازاتنا الشاهق، غير أنّ الإخفاق كان بفعل عوامل اجتماعية، وعوامل فنية تتعلق بزمن المساق ليس إلا، لننهل ونشرب من منابع الفكر والثقافة مهما اضمحلت مواردها.

نعم قد خالف المساق كل توقعاتي في الكتابة الإبداعية، ولكني قد دخلت إلى منافذ عدّة في مجالين هما:
القراءة السيميائية للأفكار والمسميات وغيرها، والنظر إلى النصوص المكتوبة والمسموعة من زاوية النقد، بعيني ناقد ثاقبة متفحصة.

الارتقاء إلى آفاق جديدة في التعبير ما خطرت لي على بال من قبل.

وعلى الرّغم من إنجازات المساق، فإنني أعتقد أن بعض الإخفاقات والعقبات تتمركز في ثلاثة محاور رئيسة هي:

- صعوبة تطبيق الأنشطة في هذه البقعة الجغرافية – الخليل، ومرّد ذلك إلى العادات والتقاليد الحازمة الصارمة، وهذا ما لمسناه في اليوم الأول.
- الوقت القصير الطويل: فوقت المساق كان قصيرا جدّا مقارنة بموضوعاته المطروحة، فكيف لأربع ندوات متلاحقة أن تغير تصورات تكدست منذ أمد، أما ندوة المساق فقد كانت طويلة تلتهم أكثر من نصف النهار بنشاطات جديدة على أذهاننا وتصوراتنا.
- تطور الأنشطة المستخدمة وإمكانية انسجامها وتناغمها مع الحقبة الزمنية القاسية التي نمرّ بها الآن، فهي أنشطة جديدة بل ونوعية نادرة تبعد أشواطاً عن واقع الحياة المعاش.

ناصر شاكر اطميزي
منتدى معلمي إذنا